سلسلة الذين أضاءوا الدَّرب ٣

أيُّها الطفلُ العربيُّ لكَ تاريخٌ عربيٌ مُشرِّفٌ. فاقرأ، وتعلَّم، واعمل.

عَبّاسُ بنُ فِرناس حكيمُ الأَندَلُس

بقلم

د. سناء شعلان

رسم: إبراهيم شاكر

عَبّاسُ بنُ فرنَاس

"حكيمُ الأندَلُسِ"

اعتادَ الفتى الصغيرُ ذوْ العينينِ البرّاقتينِ (اللّامعتين) المُسمَّى عَبّاسٌ بنَ فِرناسَ علىَ أنْ يَقطعَ (يُمضيَ) السّاعاتِ الطويلةَ في مراقبةِ حركةِ الطّيورِ والكواكبِ في السّماءِ، وقدْ حفظَ منذُ صغرهِ أسماءَ الكثيرِ منَ الكواكبِ، وعرفَ أماكنَها في السّماءِ.

لكنّهُ اليومَ بداً مشغولاً للغايةِ، حتى أنَّهُ لمْ يتابعْ كعادتِهِ دروسَ النّحوِ (قواعدِ اللّغةِ العربيّةِ) بشغفٍ (بحبٍّ كبيرٍ)؛ فقدْ كانَ يكدُّ الفكرَ (يفكّرُ بعمقٍ) في الآيةِ الكريمةِ التي تعلّمَهَا اليومَ، وردّدهَا مِراراً في نفسِهِ قائلاً: ﴿يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إنْ استطعتُم أنْ تنفذوا منْ أقطارِ السماواتِ والأرضِ فانفذوا لا تنفذونَ إلاّ بسلطانٍ﴾.

ثمَّ خفقَ قلبُهُ سروراً عندما أدركَ (عَرَفَ) أنَّ الآيةَ الكريمةَ تبشّرُ الإنسانَ بأنَّهُ سيستطيعُ يوماً أنْ يطيرَ، ولكنْ بسلطانٍ (بقوةٍ وعملٍ).

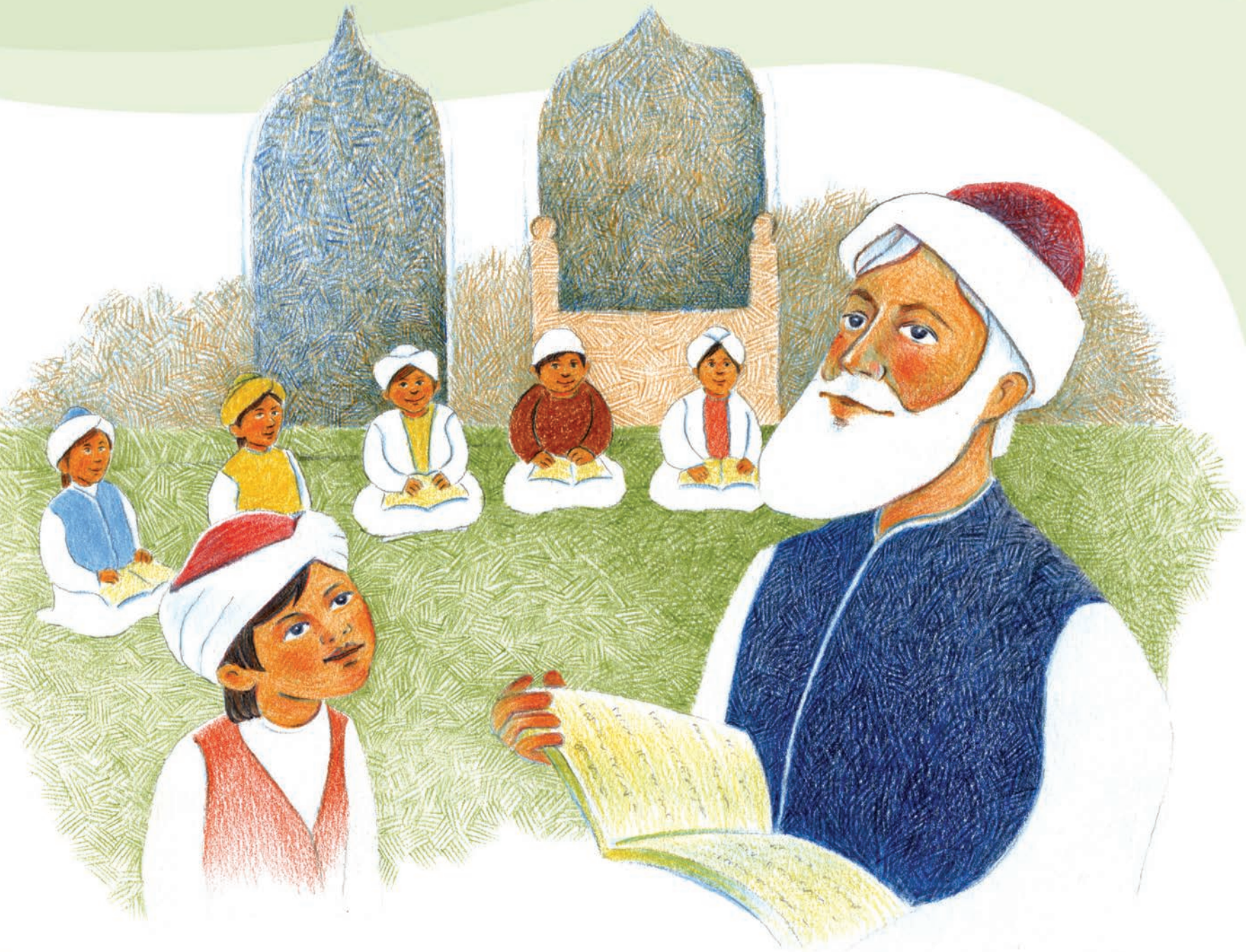

فسألَ أستاذَهُ الشّيخَ بحماسٍ قائلاً: ماْ هوَ السّلطانُ الذيْ سيستطيعُ الإنسانُ أنْ يطيرَ بِهِ يا شيخَنَا الجليلَ؟

فقالَ الأستاذُ الشّيخُ الذيْ خَبِرَ (عَرَفَ) طالبَهُ عبّاساً نجيباً (ذكياً) سؤُلاً (كثيرَ السّؤالِ) وهوَ مبتسمٌ سعيدٌ: أيّ بالعلمِ يا عبّاسُ.

قالَ عبّاسٌ (باهتمامٍ): وكيفَ ذلكَ يا شيخَنَا الجليلَ؟!

قالَ الشّيخُ الجليلُ: يا بنيّ، إذا أتقنتَ العلومَ، فقدْ يمنَّ (يُعطيكَ وينعمُ عليكَ) اللّهُ عليكَ، فتهتديَ إلى (تصلَ إلى) ما لمْ يهتدِ إليهِ إنسانٌ من قبل، وعندَهَا قدْ تخترعُ أو تكتشفُ ما يفيدُ البشريّةَ جمعاءَ، فيكونُ لكَ الأجرُ مضاعفاً إنْ شاءَ اللّه.

قالَ عبّاسٌ (بفرحٍ): وهل يمكنُ أنْ اكتشفَ كيفَ يطيرُ الطّائرُ في السّماءِ، ليطيرَ الإنسانُ مثلهُ.

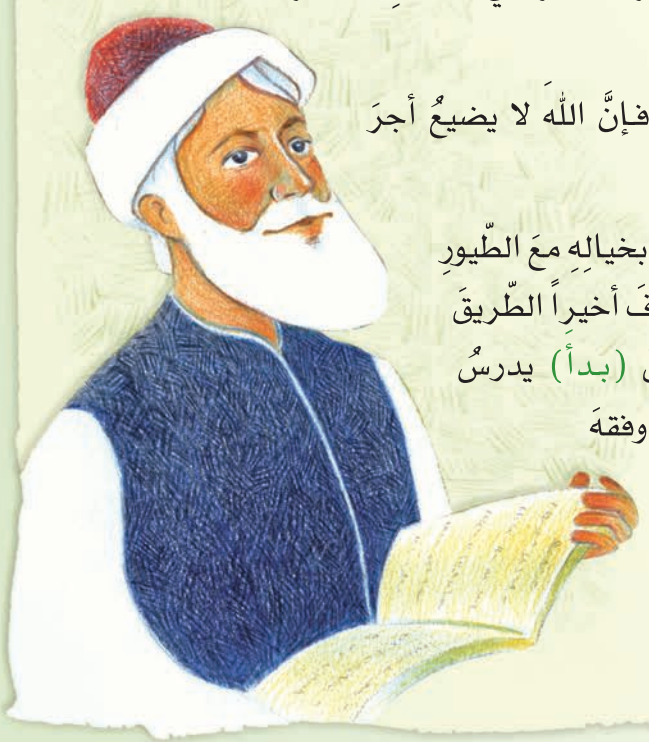

قالَ الشّيخُ: ذلكَ علمُهُ عندَ اللّهِ، ولكنْ تعلَّمْ واعملْ، فإنَّ اللّهَ لا يضيعُ أجرَ العاملينَ.

وعادَ الصغيرُ عبّاسٌ إلىَ بيتِهِ، يكادُ يطيرُ سعادةً، فيحلِّقُ بخيالِهِ معَ الطّيورِ التي يتمنّى أنْ يجرِّبَ مثلَهَا متعةَ التّحليقِ في السّماءِ؛ لأنَّهُ عَرفَ أخيراً الطّريقَ الوحيدَ إلى طيرانِ الإنسانِ، وهوَ العلمُ. ولذلكِ فقدْ طفقَ (بدأَ) يدرسُ العلومَ بِهِمَّةٍ (نشاطٍ) لا تفْتَرُ (تَضْعُفُ). فحفظَ القرآنَ، وفقهَ (فهمَ) مبادئَ الدِّينِ الحنيفِ، وحفظَ الحديثَ الشّريفَ،

ثمَّ عرَّجَ على دراسةِ مصنَّفاتِ (كُتبِ) الطِّبِ، فَدرسَ الأمراضَ، وكيفيةَ العلاجِ منهَا، ثمَّ درسَ الأعشابَ، وخصائصَ الأحجارِ والمعادنِ، فحذقَ (أتقنَ) ذلكَ كلَّهُ حتّى لُقِّبَ بـ (حكيمِ الأندلُسِ)، وهوَ لقبٌ كانتْ العربُ تَهبُهُ (تُعطيهِ) لمَنْ يَبرَعُ (يتميّزُ) في الاشتغالِ بصنعةِ (مهنة) الكيمياءِ والطِبِّ. ثمَّ درسَ زَمناً طويلاً الفيزياءَ والفلسفةَ وفنَ العمارةِ (البناءِ) والنّحوَ (علمَ قواعدِ اللّغةِ العربيّةِ)، والعروضَ (علمَ موسيقى الشّعرِ العربيِّ) حتّى أنَّهُ كانَ أوّلَ مَنْ حذقَ (أتقنَ) العروضَ في الأندلسِ (إسبانيا)، وشرَحَهُا لأهلِ قرطبَةَ، بعدَ أنْ استعصىَ (صعبَ) عليهُمْ فهمهَا، وكانوا منْ قبلِ يظنّونَ أنَّهُ علمٌ لا يُدركُ (يُفهمُ)،وكلَّلَ (تَوَّجَ) علمَهُ بتعلّمِ الموسيقى، إذْ عدَّهَا متعةَ الرُّوحِ، فأتقنَ العزفَ على أكثرِ مْنْ آلةٍ موسيقيّةٍ.

ولكنَّ همَّهُ الأوّلَ ظلّ حلمَ الطيرانُ؛ ولذَا فقدْ انهمكَ في دراسةِ ما كَتَبَ أولادُ موسىَ وثابتِ بنْ منصورِ والخوازميِّ والتّبانيِّ ويحيى بنْ منصورِ في هذاْ الموضوعِ، وكانواْ منْ علماءِ العربِ المشهورينَ في علمِ الفلكِ (علمِ النّجومِ والكواكبِ). ثمَّ طلبَ مِنْ حاكمِ قرطبةَ أنْ يُعيرَهُ الكتابَ الذيْ فيهَ تقويمٌ فلكيٌّ يحتويَ على رموزِ علمِ النّجومِ ومصطلحاتِه، فأعارهُ لهُ حاكمُ قرطبةَ حبّاً وكرامةً (بسرورٍ)، فانكبَّ عباسٌ عليهِ (انهمكَ) يدرسُهُ، حتّى حفظَهُ عنْ ظهرِ قلبٍ،ووعى (فهمَ) كلّ كلمةٍ فيهِ، ثمَّ أعادَهُ إلىَ الأميرِ شاكراً.

وبذلِكَ استطاعَ الصّبيُّ الذّكيُّ المولودُ في قرطبةَ عامَ (١٨٠م/٢٧٤هـ) في عهدِ (فترةِ حكم) الخليفةِ (الحاكم) الحكم بنِ هشام أنْ يحذقَ علوماً كثيرةً، حتّى غَدَا (أصبحَ) موسوعةً علميّةً متنقّلةً، وخرجَ بحكمةٍ مفادُهَا أنَّ مَنْ يُعطىَ عِلماً عليهِ أنْ يَنفعَ النَّاسَ بِهِ، وإلاّ استحقَ غضبَ اللّهِ، لذلكَ فقدْ آلَ على نفسِهِ (عاهدَهَا) أنْ يُفيدَ المسلمينَ والبشرّيّةَ جمعاءَ بعلمِهِ.

ولكنَّ عبّاساً بنَ فرناسَ ما انفكَّ (استمرَّ) يراقبُ حركةَ الطّيورِ، ويدرسُ أعضاءَهَا التي تساعدُهَا على الطّيرانِ، ويدرسَ حركةَ أجنحتِهَا، وطريقتَها في الإقلاعِ والهبوطِ على الأرضِ، ويسجّلُ كلَّ ذلكَ في سِفْرٍ (كتابٍ) خاصٍ، حتّى باتَ (أصبحَ) يعرفُ كيفَ يطيرُ الطّائرُ، ويفكّرُ بتقليدِهِ، ويتساءلُ هلْ يمكنُ أنْ يطيرَ الإنسانُ مثلَ الطّيورِ؟ وهلْ سيُكتبُ لَهُ أنْ يكونَ أوّلَ إنسانٍ يطيرُ؟ لمْ يكنْ عبّاسٌ – بالطبعِ – يعرفُ الإجابةَ عن سؤاليهِ الملحَّينِ (اللّذينِ يتكرّرانِ)، ولكنَّهُ كانَ يحلمُ دونَ انقطاعٍ بالطّيرانِ كطائرٍ سعيدٍ في السّماءِ.

وطارَ نجمُ (اشتهرَ) الفتى الذي غَدَا شابّاً جميلَ الطلّةِ (وسيماً)، وسرعانَ ما أصبحَ طبيبَ القصرِ وشاعرَهُ، والمقرَّبَ منَ الخليفةِ (الحاكم)، الذي قَدَّرَ علمَهُ، وأُعجِبَ بنشاطِهِ وذكائِهِ، فأمَدَّهُ (أعطَاهُ) بالمالِ، لكيْ يواصِلَ أبحاثَهُ.

فاختارَ عبّاسٌ أنْ يجعلَ منْ إحدى غرفِ بيتِهِ مختبراً، يحتويَ على أدواتٍ وآلاتٍ يحتاجُ إليها في أبحاثِهِ وتجاربِهِ، واختصَّ بمعالجةِ (تصنيع) المعادنَ بالحرارةِ، فاخترعَ الكثيرَ منَ المخترعاتِ، كانَ الزّجاجُ الشّفافُ المصنوعُ منَ الحجارةِ أهمَّهَا.

وباتَ عبّاسٌ يبهرُ (يدهشُ) النَّاسَ باختراعاتِهِ التي كرّسَهَا (جعلَهَا) لخدمةِ النَّاسِ، فقدْ اخترعَ ما يشبهُ قلمَ الحبرَ، وهوَ آلةٌ اسطوانيةُ الشَّكلِ تُستخدمُ للكتابةِ، فيسّرَ (سهَّلَ) بذلكَ الكتابةَ على النّاسِ. كذلِكَ اخترعَ آلةً أسمَاهَا (الميقاتة)؛ليقيسَ بِهَا الزمنَ، ويعرفَ أوقاتَهُ لا سيّمَا أوقات الصّلاةِ، وهي تعتمدُ على الظّلِّ، وقياسِ درجاتِهِ وزواياهُ، وقدْ كانتْ آلةً دقيقةً، حتّى أنَّهَا كانتْ تقيسُ الدّقائقَ والثّوانيَ، وقدْ كانتْ هذهِ الآلةُ أساساً فيما بعدُ للسّاعةِ الشّمسيّةِ، التي أُختُرِعتْ لاحقاً (فيما بعدُ).

كما اخترعَ آلةً عجيبةً، أسماهَا (ذاتَ الحلقِ)،ترصدُ حركةَ الكواكبِ السيّارةِ والنّجوم والقمر في اللّيلِ، والشّمسَ في النَّهارِ.

وهذاْ الاختراعُ الأخيرُ أوحَى لعبّاسٍ بنِ فرناسَ (قاده إلى) ببناءِ قبّةٍ سماويّةٍ في دارِهِ، كانتْ أُعجوبةَ عصرِهِ، وقبلةَ النّاسِ (يتجهونَ لزيارتِهَا)، الذينَ جاءوا منْ كُلِّ مكانٍ لمعاينَتِها (لمشاهدتِها)، فقدْ صنعَهَا في سقفِ بيتِهِ على هيئةِ السّماءِ، وجعلَ فيهَا نجوماً وغيوماً وبرقاً ورعداً، كما استطاعَ أنْ يُحدثَ فيهَا ظواهرَ الرّعدِ والبرقِ وسقوطَ رذاذاتٍ منَ الماءِ على هيئةِ مطرٍ بطرقٍ آليةٍ بواسطةِ بعضِ الأدواتِ والآلاتِ التي صنعَهَا، ووضعَهَا في أماكنَ شتّى (متعدّدةٍ) وَفْقَ الحاجةِ إليهَا في القبَّةِ.

كذلكَ اخترعَ عبّاسٌ ما يُشبهُ القنبلةَ المسيّلةَ للدّموعِ، صنعَهَا منْ أخلاطٍ كيمائيةٍ. واخترعَ آلةً حربيّةً تُشبهُ الدبّابةَ، فاستخدمَهَا حاكمُ قرطبةَ في حربِهِ مع بعضِ أعدائِهِ من الأعاجمِ (غير العربِ)، فانتصرَ عليهم بسببِهَا، ودَكَّ (حطَّم) بِهَا حُصونَهم (البناءَ الحصينَ).

وقدْ غيظَ العِدا (حسدَ الأعداءُ) منْ عبقريّةِ عبّاسٍ، وحاولوا أنْ يقضوا عليهِ، فاتهموهُ بالسّحرِ والشعوذةِ، ولكنَّ القضاءَ الإسلاميَّ المتعقِّلَ انتصرَ لهُ (دعمهُ وساعدهُ)، وبرّأهُ بعدَ محاكمةٍ عادلةٍ، وشجّعَهُ على مواصلةِ أبحاثِهِ واختراعاتِهِ، فقدْ أدركَ القضاءُ أنَّ عبّاساً رجلُ علمٍ يستحقُّ التّقديرَ لا السّجنَ، فقد أهدى لأهلُ قرطبةَ أجملَ فنونِ العمارةِ، إذْ بنَى لهمْ نافوراتِ المياهِ في القصورِ، وفي الحدائقِ العامّةِ، وأقامَ فيهَا النُّحوتَ (جمعَ نحتٍ) والصّورَ والتماثيلَ، فأصبحتْ قرطبةُ تحفةً فنيّةً جميلةً بسببِ عالمِهَا الجليلِ، عبّاس بن فرناس.

ولكنَّ حُلمَ الطّيرانِ بقيَ يداعِبُ خيالَ عبّاسٍ المتوثّبِ (الطّموحِ)، فكثّفَ دراستَهُ في علمِ الطيرانِ، وطَفِقَ يحاولُ أن ينفّذَ ما درسَ عن الطيرانِ. ثمَّ فاجأَ أهلَ قرطبةَ بأهمَّ حدثٍ في تاريخِ الطّيرانِ البشريِّ، إذْ أُعلنَ أنَّهُ سيطيرُ، وضربَ لذلكَ موعداً (حدّد موعداً)، فاجتمعَ النّاسُ حولَ جامعِ قرطبةَ، وصعدَ عبّاسٌ إلى مئذنةِ الجامعِ، وقذفَ بنفسِهِ منها في الجوِّ محاولاً الطّيرانَ، ونجحَ بذلكَ لزمنٍ غيرِ قصيرٍ، وحلّقَ مرتفعاً في الجوِّ، ذلكَ بعدَ أنْ استعانَ بجناحَيِّ طائرٍ كبيرٍ، وربطهُمَا إلى ذراعيهِ بشرائطَ رقيقةٍ من الحريرِ، وكادُ حُلمُ عبّاسٍ أن يتحقّقَ أخيراً، لكنّهُ تبدّدَ (ضاعَ) في اللّحظاتِ الأخيرةِ، فقدْ فشِلَ عبّاسٌ في أنْ يهبطَ بسلامٍ؛ لأنَّهُ جَهِلَ أهميّةَ الذّيلِ في الطّيرانِ، فلمْ يتخذْ (يصنع) ذيلاً، فسقطَ على ظهرِهِ، وأُصيبَ بإصاباتٍ بليغةٍ (شديدةٍ)، ألزمتْهُ الفراشَ (أجبرتهُ على البقاءِ في الفراشِ) أشهراً طويلةً.

ولكنّ عبّاساً بنَ فرناسَ ما كانَ ليبالِيَ (ليهتمّ) بألمِهِ، بل ظلَّ يراقبُ الطّيورَ المحلِّقةَ في السّماءِ منْ شُرفةِ غرفتِهِ، حيثُ يرقدُ (ينامُ) مريضاً، ويتساءَلَ في نفسِهِ: أينَ كانَ الخطأُ في طيرانِهِ؟ ما الذيْ كانَ ينقُصُهُ حتّى يهبطَ بأمانٍ؟ وتكرّرَ السّؤالان في نفسِهِ مراراً دونَ إجابةٍ شافيةٍ (صحيحةٍ)، ودونَ أنْ يعرفَ أنّ الخطأ الذي وقعَ فيه كانَ في عدمِ استخدامِ ذيلٍ، إذْ بواسطتِهِ يستطيعُ الطّائرُ أنْ يهبطَ بسلامٍ، دونَ أنْ يتعرّضَ للأذى، وهذا ما كانَ ينقصُ عبّاساً ليهبطَ بسلامٍ.

وبقيَ السّؤالُ الحائرُ حبيسَ عقلِ عبّاسٍ، الذيْ تفتّقَ (أبدعَ) عن اختراعاتٍ عجيبةٍ ومفيدةٍ طوالَ عمرِهِ المديدِ (الطّويلِ)، إذْ جاوزَ التسعينَ عاماً، إلى أنْ هجعَ (ماتَ) هجعتَهُ الأخيرةَ في قرطبةَ عام (٧٩٦هـ/٨٨٧م) في عهدِ الخليفةِ محمدٍ بن عبدِ الرّحمنِ، وهوَ مؤمنٌ (متأكدٌ) بأنَّ المستقبلَ لا بدَّ أنْ يجودَ بأبناءَ نجباءَ (أذكياءٍ) من أبناءِ الإنسانيّةِ، فيحقّقونَ حُلمَ البشريّةِ الأزليِّ بالطّيرانِ.

لوّن معنا